الفصل الثانى
أحوال بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامى

المبحث الأول: عناصر السكان:

١- العنصر الآرى.
٢- العنصر الصينى.
٣- العنصر الإيرانى.
٤- العنصر التركى.

المبحث الثانى: الأحوال السياسية:

١- بخارى.
٢- خوارزم.
٣- الصغانيان.
٤- الختل.
٥- باقى المماليك.

المبحث الثالث: الأحوال الدينية:

١- الزرادشتية.
٢- البوذية.
٣- المانوية.
٤- المزدكية.
٥- المسيحية.
٦- التوحيد.

المبحث الرابع: الأحوال الاقتصادية:

١- الزراعة.
٢- التجارة.
٣- السِّكة (العملة).

المبحث الأول: عناصر السكان

ليس المراد من دراسة عناصر السكان فى هذا المبحث الناحية الأنثربولوجية. ولكن المراد دراسة هجرات شعوب المنطقة من مكان إلى آخر، حتى استقر ببعضهم المقام فى بلاد ما وراء النهر. وأول ملاحظة تبدو للباحث هى أن المصادر العربية ربما كانت قليلة، أو إنها ليست غنية بالمعلومات التاريخية فيما يتعلق بسكان المنطقة، حيث لم تصل إلينا كتب معاصرة مثل كتاب الهيثم بن عدى (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م): «نزول العرب بخراسان والسواد»، وكتب المدائنى (ت٢٢٥هـ/٨٣٩م) التى اعتنى فيها بالفتوح الإسلامية فى خراسان وفارس والهند، وكتاب «أخبار ما وراء النهر من خراسان» لمؤلف مجهول[١٧٢] أقول؛ لم تصل إلينا هذه الكتابات إلا عن طريق الطبقة الثانية من المؤرخين أمثال: اليعقوبى (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) والبلاذرى (ت٢٩٧هـ/ ٨٩٢م) والطبرى (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م). وحتى هذه المؤلفات القيمة تاريخيًا للأسف، لم تشر هى الأخرى إلى سكان هذه المنطقة قبل الفتح الإسلامى. ولكننى ألتمس لهم العذر فى ذلك. فيكفيهم شرفا رحلتهم فى طلب العلم وجمعه وتدوينه، فى صبر عجيب، على طول الطريق، وقلة الزاد، وصعوبة السفر.

ولحسن الحظ، فقد قام كوكبة من العلماء المؤرخين المحدثين بدراسة هذا الموضوع دراسة وافية، أعرِض لوجهة نظرهم، وأستخلص فى النهاية ما يقتضيه البحث، وتطمئن إليه النفس.

أولاً: يرى أستاذى الدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف، أن سكان بلاد ما وراء النهر من العنصر التركى الذى انحدر إليها من الشرق،

(١٧٢) ابن النديم: الفهرست، ص١٣٢– ٤١٨.

منذ القرن السادس الميلادى[١٧٣]، وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة. ويوافق الأستاذ الدكتور/ حسن أحمد محمود – رحمه الله تعالى – أستاذى فى هذا الرأى[١٧٤]. ويبدو أن هذه المدرسة التاريخية قد استندت إلى رأى المؤرخ الروسى بارتولد (ت١٩٣٠م) الذى يقول: «ومن الآثار التى تهم صاحب الدراسات التركية، وتهم المؤرخ – أيضًا – آثار أورخون[١٧٥]؛ وهى تخلد أقدم ذكر للسان التركى. وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ بالترك، وهم قوم قد ظهروا فى القرن السادس، واستولوا فى زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطة»[١٧٦].

ثانيًا: يرى الدكتور شكرى فيصل: أن سكان المنطقة خليط من الأتراك والإيرانيين[١٧٧] ويستند إلى رأى المستشرق الإنجليزى «جب» الذى يقول: «ليس سكان حوض النهر (جيحون) وسكان الصغد تركًا فى الأصل، فهم إيرانيون فى طابعهم، يتكلمون لغة إيرانية، ويمارسون أنظمة إيرانية»[١٧٨].

ثالثًا: والرأى عندى، أن بلاد ما وراء النهر كان يسودها خليط من عدة عناصر مختلفة، وهى: العنصر الآرى، والصينى، والإيرانى،

(١٧٣) د. عبد الشافى محمد: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص٣٣٧.

(١٧٤) د. حسن أحمد: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، ص١١٣.

(١٧٥) نقش أورخون: نسبة إلى نهر أورخون فى منغوليا. وهذا النقش على ألواح حجرية بارتفاع ٣,٧٥مترًا، وعرض ١,٣– ١,٥مترًا، وقد كتبت النقوش عليه من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل. وأقطاى أصلان آبا: فنون الترك وعمائرهم، ص٣.

(١٧٦) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص١٧.

(١٧٧) د. شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، ص٢٠٨.

(178)Gibb: The Arab Conquests in Centeral Asia. London, 1923, VOL, II, p3.

والتركى. وأظن أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الإيضاح. ونوضحه فيما يلى:

(١) العنصر الآرى:

يعد من أقدم عناصر السكان فى المنطقة، وهو مع قلته، وغلبة باقى العناصر عليه، إلا أنه وجد فى مقاطعات وخان، وصغانيان، وبذخشان، أثناء الفتح الإسلامى، يقول بارتولد عن هذه المناطق: «احتفظ سكانها بدمهم الآرى الخالص، وكانوا يدينون بالوثنية حتى القرن العاشر الميلادى»[١٧٩].

(٢) العنصر الصينى:

أما الصينيون فقد فرضوا سيطرتهم على بخارى فى القرن السابع الميلادى، واتخذوا منها مركزًا ثابتًا لهم، وظلت بها بعض العناصر – وإن كانت بأعداد قليلة – حتى مجىء الفتح الإسلامى يقول أحد المؤرخين المحدثين: «ومما يسترعى الانتباه أن كثيرًا من الممالك التركية فى بلاد ما وراء النهر فى فترة صدر الإسلام كانت واقعة فى دائرة النفوذ الصينى على المستوى السياسى والثقافى»[١٨٠] بل إن المؤرخ الفارسى أبو سعيد الكرديزى (ت٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) يصنف الترك من جملة الصينين[١٨١]، ويوافق الدكتور سعد زغلول بقوله: «إن كلمة (ترك) صينية الأصل، وإنها كانت حديثة العهد عندما دخل الإسلام فارس»[١٨٢].

(١٧٩) بارتولد: تركستان، ص١٤٧.

(١٨٠) د. سعد زغلول عبد الحميد: الإسلام والترك فى العصر الإسلامى الوسيط، مقال فى مجلة المختار من عالم الفكر. دراسات إسلامية – وزارة الإعلام، الكويت ١٩٨٤م، ص١٤٧.

(١٨١) الكرديزي: زين الأخبار، ص٤٣٣.

(١٨٢) د. سعد زغلول: الإسلام والترك، ص١٨٢.

(٣) العنصر الإيرانى:

أما إذا انتقلنا إلى العنصر الإيرانى، فإننا نجد أن أغلب سكان بلاد ما وراء النهر كانوا من هذا العنصر؛ وكانت الفارسية هى اللغة السائدة فى أقاليم فرغانة، وخوارزم، وأشروسنة، والصغد[١٨٣] بل إن المستشرق (ماركارت) ترجم كلمة صوغد أو صوغداق (بلاد الصغد) الواردة فى النقوش الأثرية على أن معناها: «أقوام أمة فارس»[١٨٤]. مع العلم، بأن هذه اللغة ظلت سائدة فى هذا الإقليم إبان الحكم الإسلامى حتى زمن الغزو المغولى. ثم حلت محلها اللغة التركية.

ويقول الجغرافى الروسى (خانيكوف): «إن مجال الشعب الإيرانى الأول هو فى الوديان الخصبة حول نهر زرافشان.... وأقدم المستعمرات التى كانت هناك تلك الرقعة من الأرض التى تمتد من أخسيكث حتى بخارى. وهذه الرقعة التى تضم أغلب أراضى بلاد ما وراء النهر الخصبة أغلبها أسماء فارسية قديمة فى أصلها»[١٨٥].

مما سبق نستنتج، أن العنصر الإيرانى كان أحد العناصر الموجودة بكثرة فى بلاد ما وراء النهر إبان الفتح الإسلامى. وظلت اللغة الفارسية هى السائدة فى المنطقة حتى الغزو المغولى لها.

(٤) العنصر التركى:

وهو آخر العناصر الموجودة فى بلاد ما وراء النهر ولا يعد استطرادًا أن ألقى بعض الضوء عليه، نظرًا لدورهم الكبير فى هذه المنطقة من الناحية

(١٨٣) دائرة المعارف الإسلامية، م٣، جـ٢٥، ص٢٩٦.
(١٨٤) بارتولد: تاريخ الترك، ص١٥٨.
(١٨٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٤١-٤٣.

السياسية، والدينية، والاقتصادية فالترك شعوب بدوية، لم يكن لها من الحضارة شيء، حيث لم يهتموا بالكتابة؛ ولم تكن لهم لغة معروفة، بل كانوا يكتبون بالسنسكريتية، أو المغولية، وربما الصينية. إلى جانب ما ابتدعوه من حروف الكتابة الإيغورية[١٨٦]. كما لم يعرفوا العلوم، ولم يدونوا التاريخ، بل أخذ عندهم شكل الأساطير والحكايات التى تذكرنا بأيام العرب فى الجاهلية. ويرجع أصلهم إلى سكان السهول الشرقية المتاخمة لبلاد الصين. وأطلق عليهم لفظ «هون» Hun والذى يهمنا من قبائل الترك ثلاثة قبائل فقط، وهى:

الأولى: قبيلة «اليو – تشى» كما سماها الصينيون، وهذه القبيلة أخذت طريق فرغانة إلى بلاد ما وراء النهر. ومن هناك عبروا نهر جيحون، واستقروا فى منطقة بلخ، حيث عرفوا باسم «الطخارية»[١٨٧]. هذا الاسم الذى صار علمًا لتلك البلاد، فصارت تعرف باسم «طخارستان».

الثانية: قبيلة «يه – تاى» كما سماها الصينيون أيضًا – وعرفت عند المؤرخين المسلمين باسم «الهياطلة»[١٨٨]. وعند البيزنطيين بـ«الهون البيض». ومنذ القرن الخامس الميلادى انتشرت هذه القبيلة فى أقاليم نهر سيحون، وخوارزم حتى بحيرة خوارزم، كما عبروا نهر جيحون إلى بلخ وطخارستان، واتخذ ملكهم لقب «إخشنوار»[١٨٩] وحاربوا

---

(١٨٦) السيد عبد المؤمن: أضواء على تاريخ توران (تركستان)ـ، ص٧، دائرة المعارف الإسلامية، م١٠، ص١٢٣.

(١٨٧) د.سعد زغلول: الإسلام والترك، ص١٧٧.

(١٨٨) الهياطلة: نسبة إلى هيطل بن عالم بن سام بن نوح، استوطن بلاد ما وراء النهر وعمرها، فسميت باسمه. الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص١١٩، ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٤٩١.

(١٨٩) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص٤١٤.

الساسانيين، وقتلوا ملكهم «فيروز بن يزدجرد»[١٩٠] بمدينة مرو سنة ٤٨٤ م. وأمام المقاومة العنيفة من الفرس اضطر الهياطلة إلى الاتجاه نحو الجنوب الشرقى حيث كانت قبيلة الطخارية.

الثالثة: قبيلة «التو- كيو» Tou -Kiove. كما سَماها الصينيون، وعرفت عند المؤرخين المسلمين باسم «الترك». ففى بداية القرن السادس الميلادى نجح ملكهم «بومين»[١٩١] فى الانتصار على القبائل الأخرى، واتخذ لقب «خاقان». ومعناه «ملك الملوك» بعد أن كان يحمل لقب «جابغو» الذى ورد عند المؤرخين المسلمين «يبغو»[١٩٢].

لم تلبث دولة الترك بعد وفاة «بومين» أن انقسمت إلى مملكتين: شرقية، بقيادة «بومين قاغان» المعروف باسم «موهان» الذى توفى سنة ٥٥٢م، ونجح الصينيون فى القضاء على مملكته حوالى عام ٦٢٠م[١٩٣] وأما المملكة الغربية فكانت بقيادة «إستمى يابغو» المعروف باسم «استامى» الذى نجح فى تحطيم الهياطلة حوالى سنة ٥٦٥م، وبسط سيطرته على إقليم الصغد حتى منطقة بلخ[١٩٤]. وبذلك رحل الهياطلة نهائيًا عن بلاد ما وراء النهر، واستقروا فى سهول المجر. وكان على هؤلاء الأتراك الغربيين أن يواجهو الفتح الإسلامى.

يفهم مما سبق أن إقليم بلاد ما وراء النهر كان موطن الأتراك الغربيين فقط، أما موطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب

---

(١٩٠) ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٣١٣.

(١٩١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٦٠. ودائرة المعارف الإسلامية، م١٦، جـ١٢٦، ص٣٦٧.

(١٩٢) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص١٢٠، ابن فضلان: الرحلة إلى بلاد الترك، ص١٠١.

(١٩٣) د. سعد زغلول: الإسلام والترك، ص١٢٨.

(١٩٤) بارتولد: تركستان، ص٣٠٥.

الشمال حتى السهول الروسية، وربما امتد حتى حدود الصين[١٩٥].
هذا، ولا تقتصر قبائل الترك على ما ذَكرتُ بل هناك قبائل كثيرة أخرى ومنها: قبائل بجناك، بجا، بغراج، التغزعز، جكل، خرخيز، الخيتان، الخرلخ، الخزر، خطلخ، الغز[١٩٦].

وصفوة القول: أنه من الثابت المؤكد أن الترك كانوا فى القرنين السادس والسابع الميلاديين، يسودون مواطن كثيرة ببلاد ما وراء النهر، وإن وجدت بعض العناصر الأخرى، مثل: العنصر الآرى، والصينى والإيرانى، وإن كانت قليلة، إلا إنها لا يمكن إغفالها فى البحث.

❑❑❑

(١٩٥) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص١١١.

(١٩٦) لمزيد من التفاصيل انظر أبى دلف(ت٣٩٠هـ) رحلة أبى دلف إلى بلاد الترك والصين والهند، ص٤١– ٤٥، ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٣١، القزوينى: آثار البلاد، ص ٥٨٠– ٥٨٩.

المبحث الثانى: الأحوال السياسية

سبقت الإشارة – فى الفصل السابق– إلى أن بلاد ما وراء النهر لم تعرف قيام حكومة مركزية، بل ظهرت فيها عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض، بل ومتحاربة باستمرار[١٩٧]. ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الإنجليزى جب فقال: كانت الولايات فى هذه المنطقة تعترف بـ«الخان» سيدًا لها وتدفع له الجزية. وكانت إمارة الصغد مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاهدات مرنة؛ وقد ارتبطت الولايات برباط سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسرات الأخرى – ولكنه لم يكن رباطا وثيقًا. وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء، سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه... وكذلك كان الحال فى منطقة سيحون»[١٩٨] وهذا النص نحاول أن نتعامل معه بشىء من التفصيل على حسب ما تيسر لنا من معلومات عن هذه البلاد:

١- إقليم بخارى:

تأتى بخارى على رأس مدن بلاد ما وراء النهر أهمية فى هذه الدراسة وقد سبق الحديث عن نشأة المدينة، ووفقًا لراوية النرشخى: فإن القوم بعد أن مهدوا الأرض، واستقروا فيها نصبوا أميرًا عليهم يسمى «أبروى» والذى اتخذ من مدينة بيكند – معناها مدينة الأمير – مقرًا لحكمه. ولكن سرعان ما أمعن هذا الحاكم فى الاستبداد[١٩٩]. وظلم الرعية، حتى

(١٩٧) د. عبد الشافى محمدعبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص٣٣٨.

(198) Gibb: The Arab Conquests. PP. 6-7.

(١٩٩) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٢٠.

اضطر بعض الأغنياء إلى الهجرة إلى مدينة (جمكنت)[٢٠٠] – ومعناها المدينة الطيبة الجميلة – واستنجدوا بالأمير التركى (فراجورين ترك) صاحب البلاد المجاورة لهم. والذى أرسل ابنه «شيركشور» – ومعناها أسد البلاد – مع جيش عظيم، ونجح فى القضاء على أبروى.

حكم شيركشور:

أعجب شيركشور بهذه الولاية، فأرسل إلى أبيه كتابًا يطلب منه البقاء ببخارى، فوافق أبوه، ثم استدعى شيركشور الأثرياء، وسمح لهم أن يكونوا طبقة النبلاء؛ التى عرفت باسم «خدات»[٢٠١]. هذا؛ وقد امتد حكم شيركشور ثلاثين عامًا وعندما توفى خلفه فى الحكم أمير آخر – لم تذكر المصادر اسمه – وقد بنى عدة مدن ومنها: اسكجكت[٢٠٢]، ورامیثن[٢٠٣]، وفرخشى[٢٠٤].

حكم السيدة خاتون[٢٠٥]:

ثم تولى حكم البلاد الأمير "بيدرون" الذى اتخذ لقب «بخارا خداه»[٢٠٦]. وظل فى الحكم فترة قصيرة. وعندما مات ترك طفلا

(٢٠٠) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٣٨.

(٢٠١) د. أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، ص١٦٥.

(٢٠٢) اسكجكت: لم أعثر عليها بهذا الاسم، وقد ذكر السمعانى وياقوت قرية «إسبسكت» إنها من قرى سمرقند، ولعلها هى، السمعانى: الأنساب، جـ١، ص١٢٩، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٤٢.

(٢٠٣) رامیثن: إحدى قرى بخارى، السمعانى: نفس المصدر، جـ٣، ص٣٠. ياقوت: نفس المصدر، جـ٢، ص٣٨٣.

(٢٠٤) فرخشى: إحدى قرى بخارى. ياقوت: نفس المصدر، جـ٣، ص٤٢٣.

(٢٠٥) خاتون: كلمة صغدية شاعت فيما بين الترك والمغول، بمعنى ملكة، بارتولد: تاريخ الترك، ص٥٠.

(٢٠٦) بخارا خداه: لقب ملك الترك. ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٤٠.

رضيعا اسمه «طغشاده»، فخلعته أمه «خاتون» وجلست هى على عرش البلاد[٢٠٧]. ويذكر النرشخى أن حكمها قد استمر خمس عشرة سنة[٢٠٨]، أو خمسين سنة على قول فامبرى[٢٠٩]. وقد تميزت هذه السيدة بالعدل، فكانت تحكم بصائب الرأى، ومن ثم فقد انقاد الناس لحكمها، ووكل بها من يحرسها ليل نهار، وهذه السيدة هى التى قاومت الفتوحات الإسلامية، كما سيأتى.

٢- إقليم خوارزم:

والكلام لا يختلف كثيرًا عن بخارى، حيث كان يحكم خوارزم أسرة حاكمة عرفت بـ«شاهات خوارزم»[٢١٠]، يرجع أصل هذه الأسرة إلى أزمنة تاريخية أسطورية قبل الفتح الإسلامى. وكان ملكهم يحمل لقب «خسرو خوارزم»[٢١١] وكانت لغتهم الفارسية، وظلوا يكتبون بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى[٢١٢].

٣- إقليم طخارستان:

يأتى فى مقدمة إقليم طخارستان مدينة الصغانيان، وهم إن كانوا مجهولى الأصل، إلا أنهم اتخذوا قبل الإسلام لقب «صغان خدات». أما بعد الفتح الإسلامى فقد لقبوا بـ«آل محتاج»[٢١٣] على قول ابن حوقل.

(٢٠٧)دائرة المعارف الإسلامية، م١٦، جـ٢٥، ص٣٢٠.
(٢٠٨) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٢٣.
(٢٠٩) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٣٩.
(٢١٠) بارتولد: تركستان، ص٣٦٣.
(٢١١) انظر هذه الألقاب فى ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٤٠.
(٢١٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا، ص١٥٨.
(٢١٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩٤.

أما مدينة الخُتل فكان ملكهم يحمل لقب «خُتّلان شاه» أو «شير خُتلان»[٢١٤]. وإن كانت المصادر التاريخية لم تقدم لنا شيء عن تاريخ هذه البلاد قبل الفتح الإسلامى، إلا إنهم فى القرن الثانى عشر الميلادى[٢١٥]، كانوا لا يزالون ينسبون إلى الملك الساسانى بهرام جور(٤٢٠-٤٣٨م)[٢١٦].

٤- باقى الممالك:

أما باقى الممالك فلم تحدثنا المصادر بشيء عنها سوى ألقابهم ومنها: ملك الترمذ (ترمذ شاه)، ملك الصغد (فيروز)، ملك فرغانة (أخشيد)، ملك أشروسنة (الأفشين)، ملك سمرقند (طرخان)، ملك كش (بيدون)، ملك وردانه (وردان شاه)[٢١٧].

وخلاصة القول: إن بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامى كانت مقسمة إلى إمارات صغيرة، وكان العداء مستمرًا بينها، أما المجتمع فقد انقسم إلى طبقتين: طبقة الأغنياء وهى تعرف بـ«الدهاقين» وقد تمتعت بكافة الحقوق والمزايا، وطبقة أخرى فقيرة، هى طبقة «**الفلاحين**». وقد حُرمت من كل شيء[٢١٨] كل هذه العوامل والفروق الاجتماعية، جعلت بلاد ما وراء النهر مهيأة للفتح الإسلامى الذى سيخلصها من هذا التفكك السياسى والاجتماعى.

---

(٢١٤) دائرة المعارف الإسلامية، م١٦، جـ١٢٨، ص٤٩٠.
(٢١٥) بارتولد: تركستان، ص٣٦٤.
(٢١٦) أرثر كريستنسن: إيران فى عهد الساسانيين،ص٢٦٦.
(٢١٧) انظر لمزيد من التفاصيل، ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٣٩-٤٠، الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص١١٩-١٢٠، كريستنسن: نفس المرجع، ص٤٨٢.
(٢١٨) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص١١٥.

المبحث الثالث: الأحوال الدينية

وإذا انتقلت للحديث عن الحياة الدينية فى بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامى، فإننا نجدها لا تختلف كثيرًا عن الحياة السياسية، فقد سادها التفكك، ولم توجد ديانة واحدة تلتف حولها شعوب المنطقة. هذا، والجدير بالذكر، أن الديانات المختلفة التى ظهرت فى بلاد ما وراء النهر، لم تظهر فى وقت واحد، بل ظهرت فى أزمنة مختلفة، وأنها ظهرت أيضا متأثرة بديانات الشعوب المجاورة لها من الصينين، والهنود، والفرس.

وفيما يلى نلقى بعض الضوء على هذه الديانات:

١- الزراد شتية:

تنسب إلى زرادشت، وهو رجل من أهل أذربيجان[٢١٩]. وقد ظهر أيام الملك بشتاسف بن لهراسف[٢٢٠].وقد زعم أتباعه بعض الأساطير حول ولادته. وقيل: إنه عندما بلغ سن الثلاثين دعا الملك إلى دينه فأجابه، وذلك بعد أن رأى على يده المعجزات كما يزعمون.

وأما عن مذهبه فهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والقول بأن النور والظلمة أصلان متضادان[٢٢١]. وقد صنف كتابًا يدعو فيه لمذهبه يسمى [زند أوستا] أو [أفستا]. قسم فيه العالم إلى قسمين: الروحانى،

(٢١٩) أَذْرَبِيجَان: ومعناها أرض النار، وتقع بين برذعة شرقًا، إلى بلاد الديلم من الشمال، وهو إقليم واسع، به مدن مشهورة. ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٢٨– ١٢٩.

(٢٢٠) هناك اختلاف حول كتابة هذا الاسم، انظر الطبرى: تاريخ الأمم، جـ١، ص٣١٧، وكريستنسن: إيران، فى عهد الساسانيين ص١٣٢–١٥٠.

(٢٢١) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ٢، ص٤١. الإمام الرازى: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص٨٦.

والجسماني، أو الروح والشخص. ويدعى أن موارد التكليف ثلاثة: الاعتقاد، والقول، والفعل، وأتباعه يعظمون النار[٢٢٢] أكثر من غيرها، لمعان كثيرة منها: أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام.

هذا، وقد انتقلت هذه الديانة إلى بلاد ما وراء النهر، وأقيمت فيها بيوت لعبادة النار، ومنها: بيت بروسون، وبيت قباذان ببخارى. كما وجدت أماكن أخرى فى خوارزم[٢٢٣]، وراميثن ويقول المجوس، إن هذه النار أقدم من بيت نار بخارى. ويحدثنا النرشخى؛ عن جماعة من الدهاقين تسمى (آل كثكثة) رحلوا عن بخارى بعد الفتح الإسلامى، وبنوا خارج المدينة سبعمائة قصر، وأقاموا فيها بيوتا لعبادة النار[٢٢٤].

ويذكر البيرونى أعياد المجوس فى بلاد ما وراء النهر. ومنها: عيد يقام فى بخارى كل عام يسمى (رامش آغام). كان المجوس يجتمعون فيه كل عام، وكان أعز الأعياد عندهم. وعيد آخر كان يقام فى مدينة (بيكند) يسمى (بكج آغام). كانوا يأكلون فيه بعد تركهم الطعام فترة طويلة[٢٢٥]. وأما آخر هذه الأعياد فكانت تقام فى مدينة كشمين[٢٢٦].

٢- البوذية:

تنسب إلى بوذا سف (٥٦٦- ٤٨٦ق.م). وهى تعنى: المنَّور. وقد ظهر بوذا فى أول حكم الملك طهمورث بأرض الهند[٢٢٧] وبمرور الوقت صار له أتباع كثيرون.

(٢٢٢) القزوينى: آثار البلاد، ص٣٩٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٩٣.
(٢٢٣) المسعودى: مروج الذهب، جـ٢، ص٢٢٦-٢٢٧، النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٠٨.
(٢٢٤) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٣٥-٥٢.
(٢٢٥) البيرونى: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص٢٠٤.
(٢٢٦) كشمين: إحدى قرى بخارى، ذكرها السمعانى وياقوت بالسين. انظر الأنساب، جـ٥، ص١٥، ومعجم البلدان، جـ٤، ص١١٤.
(٢٢٧) ابن النديم: الفهرست، ص٤١٩، البيرونى: المصدر السابق، ص١٧٣.

تسربت هذه الديانة إلى بلاد ما وراء النهر مبكرًا، فقد ذكر النرشخى، أن الملك شيركشور، بعد أن بنى بخارى، زوج ولده من ابنة ملك الصين. وعندما حضرت العروس إلى بخارى، جاءوا فى جهازها ببعض الأصنام، وأقيمت لها معبد فى مدينة راميثن. وهكذا اعتنق الأتراك (التورانيون) عبادة الأصنام، بينما ظل الإيرانيون على العبادة الزرادشتية، وظل الصراع قائمًا بين الديانتين، أو قل بين العرقين التورانى والإيرانى[٢٢٨]. ونعود إلى أماكن عبادة البوذية فى بلاد ما وراء النهر، فنجد ابن الفقيه يذكر عن بيت (النوبهار)[٢٢٩] المقام ببلخ، - والذى كان ملوك الصين، وكابل يحجون إليه؛ ويسجدون للصنم الأكبر به - أن هذا المعبد كان له وقف فى مدينة طخارستان. يقال له (زوان)، وصلت مساحته إلى ثمانية فراسخ فى أربعة فراسخ[٢٣٠] وأهله كلهم عبيد للبيت.

ويذكر المقدسى، أن عبادة الأصنام كانت منتشرة فى مدينة تكابكث، وسمنجات، وخمدان. ويؤكد صاحب حدود العالم على أن هذه الأصنام كانت منحوته فى الصخر، وأنها من عمل الهنود[٢٣١]. كذلك ظهرت هذه العبادة فى مدينة فرغانة، وكان معبدها يسمى [بيت كاوسان] قال عنه الشهرستانى: «إنه بيت عجيب على اسم الشمس، وقد خربه المعتصم العباسى»[٢٣٢].

وبخصوص بخارى - فقد سبقت الإشارة - إلى أنها قد اشتقت من كلمة «بُخر» وهى بمعنى دير أو صومعة، حيث كان للبوذيين معبد

(٢٢٨) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٥١.

(٢٢٩) حول وصفه انظر: المسعودى: مروج الذهب، جـ٢، ص٢١٦، النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٥٨. واليعقوبى: البلدان، ص٢٨٨.

(٢٣٠) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٢٣.

(٢٣١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٥، مجهول: حدود العالم، ص٧٨-٩٤.

(٢٣٢) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ٣، ص٧٨. والنويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٥٨، يذكر أن الخليفة المعتضد بالله هو الذى خربه.

فيها، أو على مقربة منها فى سمرقند. والذى يُعضد هذه القول ما ذكره النرشخى، من أنه كان يقام سوق لبيع الأصنام فى بخارى يسمى (بازار ماخ روز): كان يقام مرتين فى العام لمدة يوم واحد، وكان يباع فيه من الأصنام ما تربو قيمته على خمسين ألف درهم وذلك لأن كل شخص يشترى لنفسه صنما يحمله إلى بيته[٢٣٣].

كذلك وجد معبد للأصنام فى مدينة بيكند، فقد ذكرت المصادر الإسلامية، أن القائد قتيبة ابن مسلم (٤٩-٩٤هـ/ ٦٦٩- ٧١٥م) عندما فتح هذه المدينة وجد فيها معبدًا للأصنام عثر فيه على صنم من الفضة يزن أربعة آلاف درهم. بالإضافة لبعض الأوانى الأخرى التى صنعت من الفضة الخالصة، والتى كانت تزن مائة وخمسين ألف مثقال[٢٣٤]. فقام بإحراقها، مما كان له أثر كبير فى نشر الإسلام بين أهل هذه البلاد.

٣- المانوية:

يعَّرف صاحب «مفاتيح العلوم» المانوية بقوله: «طائفة منسوبة إلى مانى، ويطلق عليهم الزنادقة»[٢٣٥]. فمن هو مانى هذا!؟.

هو: مانى بن فتق بابك بن أبى برزام، وأمه تسمى (ميس) أو (.)، كانت تركية، وكان أبوه يعمل فى بيت للأصنام، وزعم أتباعه أن أمه كانت ترى له المنامات الحسنة، وأنه كان يتكلم فى صغره بالحكمة، وأن الوحى نزل عليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ويورد لنا ابن النديم نص هذا الوحى[٢٣٦].

(٢٣٣) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٤٠.
(٢٣٤) ابن الجوزى: المنتظم، جـ١، ص١٦٧.
(٢٣٥) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص٣٧.
(٢٣٦) ابن النديم: الفهرست، ص٣٩٩. السمعانى: الأنساب، جـ٢، ص١٨٧.

خرج مانى فى حكم سابور بن أردشير[٢٣٧]، ودعا إلى مبدأ النور والظلمة، وفرض على أصحابه عشر فرائض. وكان يقدس النار، ويجعلها قبلته[٢٣٨]. وألف مانى الكثير من الكتب أهمها: كتاب (الشابرقان)[٢٣٩]، والذى ترجم فيه لحياته، وشرح فيه أصول مذهبه وباعتناق الملك الفارسى سابور لمذهب المانوية، فقد انتشرت فى إقليم فارس. وقد ظلت هناك حتى حكم الملك بهرام بن هرمز والذى قبض على مانى، وقتله صبرًا[٢٤٠]. ثم أخذ يضطهد أتباعه مما أدى إلى هجرتهم إلى بلاد ما وراء النهر[٢٤١].

وهكذا، ظهرت المانوية فى بلاد ما وراء النهر، وأصبحت الرئاسة فيهم. يقول البيرونى: «وبقى من مستجيبية (أى مانى) بقايا منسوبة إليه مفترقة الديار لا يكاد يجمعهم موضع واحد فى بلاد الإسلام إلا الفرقة التى بسمرقند المعروفين بالصابئين»[٢٤٢]. ويوافقه صاحب حدود العالم إلا إنه يسميهم (نغوشاك)[٢٤٣]. أما صاحب الفهرست فيطلق عليهم (المنانية)، ويورد لنا صورة خطهم الذى كانوا يكتبون به شرائعهم[٢٤٤].

ومن الجدير بالذكر، أن هذه الطائفة قد ظلت منتشرة فى بلاد ما وراء النهر حتى عصر الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١- ٧٥٠م) وفى ولاية خالد بن عبد الله القسرى. كان عددهم بسمرقند نحو خمسمائة رجل.

(٢٣٧) ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص٢٩٩، كريستنسن: إيران فى عهد الساسانيين ص١٧٠ وما بعدها.

(٢٣٨) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ٢، ص٤٩، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٩٦.

(٢٣٩) ابن النديم: الفهرست، ص٤٠٨- ٤٠٩، البغدادى: الفرق بين الفرق، ص١٦٢، السمعانى: الأنساب، جـ٣، ص١٧٣.

(٢٤٠) الدينورى: الأخبار الطوال، ص٩١. واليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص١٣٩.

(٢٤١) كريستنسن: إيران فى عهد الساسانيين، ص١٩٠- ١٩١.

(٢٤٢) البيرونى: الآثار الباقية، ص١٧٨.

(٢٤٣) مجهول: حدود العالم، ص٨٤.

(٢٤٤) ابن النديم: الفهرست، ص٣ - ٤١٠.

وعندما اشتهر أمرهم، وَهّم خالد بقتلهم أرسل إليه ملك الصين يحذره من ذلك، ويهدده بقتل المسلمين فى بلاده، فكف خالد عنهم، وأخذ منهم الجزية. وحماية ملك الصين للمانويين أمر طبيعى، لأنه كان على مذهبهم، يقول الإمام الرازى: «وهرب أصحاب مانى بعد قتله إلى الصين، ودعوا إلى دين مانى فقبله أهل الصين منهم»[٢٤٥].

هذا، ولم تنته المانوية بسقوط الدولة الأموية، بل استمرت خلال الدولة العباسية – فترة البحث – ويذكر ابن النديم – الذى ندين له بالفضل حول ذكر هذه الطائفة – "إن هؤلاء القوم يسمون حاليًا (أى عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م) أجارى، وهم برستاق سمرقند و الصغد، وانتقلت الرئاسة إلى سمرقند، وصاروا يعقدونها هنالك"[٢٤٦] وخلال هذه الفترة انقسمت طائفة المانوية إلى فرقتين. وهما: المهرية والمقلاصية، أتباع مقلاص. الذى ظهر فى خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٦– ١٥٨هـ/ ٧٥٣–٧٧٤م) وخالف أهل مذهبه فى أشياء استحدثها ولم يزل حالهم على ذلك، حتى خلافة المأمون (١٩٨– ٢١٨هـ/ ٨١٣– ٨٣٣م) فظهر رجل منهم يسمى «يزدان بخت»، فدعا إلى مذهب جديد، وانضمت إليه جماعة منهم. وقد استمرت هذه الفرقة حتى عصر الخليفة المعتصم (٢١٨– ٢٢٧هـ/ ٨٣٣– ٨٤١م)، وكان رئيسهم يدعى «أبو على سعيد». وقد خالفه كاتبه«نصر ابن هرمزد السمرقندى» فى أشياء رخصوا فيها لأهل المذهب[٢٤٧]، وقد استمرت هذه الطائفة حتى ذلك التاريخ، ولم نعد نعثر على تفاصيل خاصة بهم بعد هذا التاريخ.

(٢٤٥) الرازى: اعتقادات فرق المسلمين، ص٨٨.
(٢٤٦) ابن النديم: الفهرست، ص٤١٠– ٤١١.
(٢٤٧) ابن النديم: نفس المصدر، ص٤٠٧– ٤١٠.

٤- المزدكية:

مؤسس هذه الفرقة هو مزدك بن همد ادان (وعند البيرونى الرازى نامدان)[٢٤٨]، ظهر أيام الملك قباذ بن فيروز، وقد استجاب هذا الملك لدعوته، التى تتلخص فى اشتراك الناس فى الأموال والحُرم، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ، وأمرهم بتناول الملذات والانعكاف على الشهوات[٢٤٩]، ويشير صاحب الفهرست إلى مؤلفات مزدك وأهمها كتاب الزند[٢٥٠]، الذى ترجمه عبد الله بن المقفع[٢٥١] – ثم أبان بن عبد الحميد بن لاحق – إلى العربية، ولكنه للأسف لم يصل إلينا.

ويبدو أن مذهب مزدك الذى يدعو إلى الإباحية والانحلال كان يهدد النظام الاقتصادى فى الدولة الساسانية، فعندما اعتلى كسرى أنوشروان عرش الدولة، أمر بقتل مزدك[٢٥٢] ومع هذا، فقد تسربت هذه الدعوة إلى بلاد ما وراء النهر، فيحدثنا الشهر ستانى أن أتباع مزدك كانوا منتشرين فى صغد سمرقند والشاش وإيلاق[٢٥٣]، ومن أشهر فرقهم: الماهانية، والأسبيد خامكية[٢٥٤].

٥- المسيحية:

هم أمة عيسى بن مريم – عليه السلام – وقد اختلف أتباعه حول طبيعته، ومن ثم فقد انقسموا إلى ثلاث فرق. وهى: الملكانية،

(٢٤٨) البيرونى: الآثار الباقية، ص١٣٩، الرازى: اعتقادات فرق المسلمين، ص٨٩.
(٢٤٩) البغدادى: الفرق بين الفِرق، ص١٦١.
(٢٥٠) ابن النديم: الفهرست، ص١٥٠– ١٩٨، ٣٠٣، ٤١٦.
(٢٥١) الجهشيارى: الوزراء والكُتّاب، ص١٠٩، أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ١، ص٢١١.
(٢٥٢) الدينورى: الأخبار الطوال، ص١١٧، الطبرى: تاريخ الأمم، جـ١، ص٤٢٢– ٤٢٣.
(٢٥٣) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ٢، ص٥٤– ٥٥.
(٢٥٤) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص١٨٩.

والنسطورية، واليعقوبية. ولا أخوض فى هذه الانقسامات، وإنما يلزمنى منها، طائفة النساطرة.

يعرفهم صاحب مفاتيح العلوم بأنهم «المنسوبون إلى نسطورس وكان أحدث رأيا فنفوه عن مملكة الروم، فليس بها أحد منهم»[٢٥٥] ويزيدنا الشهرستانى فيقول: «هم أصحاب نسطور الحكيم؛ الذى ظهر فى زمان المأمون. وتصرف (أى نسطور) فى الأناجيل بحكم رأيه، وقال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم والحياة، واتحدت الكلمة بجسد المسيح كإشراق الشمس فى كورة»[٢٥٦].وهم يختلفون مع باقى المذاهب المسيحية فى أمور أخرى يطول شرحها[٢٥٧].

والسؤال الآن: كيف انتقلت المسيحية (النسطورية) إلى بلاد ما وراء النهر؟ وما هى أهم مراكزها هناك؟

أقول، أدت مطاردة الدولة البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة – بسبب الاختلاف حول طبيعة السيد المسيح وأشياء أخرى – إلى أن انطلق هؤلاء النساطرة إلى مكان بعيد عن الإمبراطورية البيزنطية فكان هذا المكان بلاد ما وراء النهر وكان من الطبيعى أن يكسب هؤلاء عطف الساسانيين – بسبب كراهيتهم وعدائهم للبيزنطيين[٢٥٨]– وقد صادفت جهود النساطرة شىء من التوفيق بسبب النضال المرير بين الزرادشتية والمانوية.

أما عن أهم مراكز النساطرة فى بلاد ما وراء النهر، فبالرجوع إلى المصادر التاريخية، نقرأ عند المقدسى أن مدينة ميركى، بها جامع كان

(٢٥٥) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص٣٣.

(٢٥٦) الشهرستانى: الملل والنحل، جـ٢، ص٢٩– ٣٠.

(٢٥٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٤، ص٤٠٧، والقلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٨٠– ٢٨١.

(٢٥٨) إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ١، ص٤٣٠، وما بعدها.

فى القديم كنيسة[٢٥٩]. ويحدثنا ابن حوقل عن مدينة الشاوذار بسمرقند أن بها «عُمْر (كنائس) للنصارى فيه مجمع لهم، وبه مساكن حسنة نزهة». ويخبرنا أنه رأى بها قومًا من نصارى العراق سكنوا هذه المنطقة لنزاهتها حيث كانت تشرف على الصغد. وكان هذا الموضع يسمى «بوزكرده». ويقول أيضًا عن مدينة «وينكرد» – إحدى قرى إقليم الشاش – إنها «قرية للنصارى»[٢٦٠].

وابن النديم يحدثنا عن أحد الثقات – لم يسمه –: إنه دخل بلاد الصَغد بناحية بلاد ما وراء النهر، ووجد أهلها نصارى[٢٦١]، وأورد لنا صورة خطهم، والقزوينى وهو يعدد لنا ديانات التركستان فيذكر منهم النصارى[٢٦٢]. والقلقشندى يذكر أن بمدينة (كاث) – عاصمة خوارزم – مائة بيت للنصارى[٢٦٣]. والبيرونى يقول: إن عيدًا للنصارى يعقد كل عام فى شهر أيار (مايو) فى مدينة خوارزم يسمى عيد الوَرْد، حيث كانت الكنائس تزين فيه بالورود[٢٦٤].

هذا، وقد ظلت المسيحية فى بلاد ما وراء النهر، وأنشئت فى سمرقند أسقفية بابوية بين عامى ٤١١– ٤١٥م[٢٦٥]. ويذكر أحد المستشرقين أن المسيحية قد استمرت حتى القرن التاسع الميلادى (٣هـ)، وإن كانت

(٢٥٩) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧٥.
(٢٦٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤١٠– ٤١٦. ويسميها الإصطخرى: الساودار، المسالك والممالك، ص١٨٠.
(٢٦١) ابن النديم: الفهرست، ص٣١.
(٢٦٢) القزوينى: آثار البلاد، ص٥١٥.
(٢٦٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٥– ٤٥٤.
(٢٦٤) البيرونى: الآثار الباقية، ص٣٦٣.
(٢٦٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص٥٣.

بأعداد ضئيلة، وبمرور الوقت دخل الناس فى الإسلام ولم يوجد إلا قلة ضئيلة بأواسط آسيا فى أواخر القرن الثالث عشر (٧هـ)[٢٦٦].

وهكذا رأينا بلاد ما وراء النهر وآسيا الوسطى كانت كلها تعيش فى حالة من الاضطراب الدينى. من تشدد الزرادشتية، إلى إباحية المزدكية، وتعقيد المسيحية. هذه الديانة السماوية التى كان يفترض فيها أن تشعر الناس بالأمان والطمأنينة، صارت هى الأخرى فى غموض شديد؛ واختلاف مرير، لذا فكانت المنطقة كلها مهيأة للدين الإسلامى الحنيف الذى يتماشى مع العقل وتستقيم به الفطرة. ويعجبنى هنا قول المستشرق الإنجليزى توماس آرنولد فيقول: «جاء الإسلام يكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد... هكذا قُدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سُبلا واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم فى أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة»[٢٦٧].

٦- التوحيد:

لا يلزم بالضرورة أن نسلم للمستشرقين – مع عظيم علمهم – بكل الأبحاث التى كتبوها عن ديانات منطقة آسيا الوسطى، وذلك لأن معظم هذه الأبحاث قد كتبت فى ظل الحكم الشيوعى لهذه البلاد. فأراد المستشرقون أن يقطعوا كل صلة تربط بين هذه الشعوب وعالمهم الإسلامى. فلم يذكروا عن ديانة التوحيد شيء[٢٦٨].

(٢٦٦) سانت موسى: ميلاد العصور الوسطى، ص٢٦٨.
(٢٦٧) توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٢٣٦– ٢٣٧.
(٢٦٨) د. أحمد فؤاد سيد: الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، ص٢٤.

أقول: ونحن نؤمن عن يقين، بأن التوحيد قد ظهر فى هذه المنطقة وأن الله عز وجل قد أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين، ومصداق ذلك قول المولى عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[٢٦٩] وأما عن أسماء هؤلاء الأنبياء والمرسلين، فلم يخبرنا المولى عز وجل عنهم ولكنه قال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[٢٧٠] ومن مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢٧١]. فإن العبادة لا تتصور بدون التعليم الإلهى وذلك لا يكون إلا بإرسال الرسل. ودليل آخر، وهو قول الرسول ﷺ: «... وكانت الأنبياء قبلى يبعثون إلى قومهم خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٢٧٢] وفى حديث أبى ذر قال: سألت النبى ﷺ كم عدد النبيين؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا»[٢٧٣].

إذًا: لا نستبعد مطلقًا أن يُرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين لأهل هذه المنطقة لينذرهم. ثم، أيعقل أن تظهر هذه العقائد مثل: الزاردشتية، والبوذية، والمزدكية، والمانوية ولا يظهر بينهم التوحيد؟!. إننى أتفق تمامًا مع الرمزى فى قوله عن سكان آسيا الوسطى «وقصرهم العبادة على المعبود بالحق جل جلاله، وتخصيصه بها، وتوحيد رب العالمين دائمًا، فضلا عن إثباته سبحانه، يُعْلم ذلك فى تفتيش أقوال المحققين المتحرين للصواب المتجنبين عن الجزاف»[٢٧٤].

---

(٢٦٩) سورة فاطر، آية ٢٤.
(٢٧٠) سورة غافر، آية ٧٨.
(٢٧١) سورة الذاريات، آية ٥٦.
(٢٧٢) حديث صحيح ابن حجر: فتح البارى. جـ١. ص٥١٩، رقم ٣٣٥.
(٢٧٣) ابن قتيبة: المعارف، ص٣٣، وابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٦، ص٢٦٧.
(٢٧٤) الرمزى: تلفيق الأخبار عن تلقيح الآثار فى وقائع قزان و بلغار وملوك التتار، جـ١، ص٤١-٤٢.

المبحث الرابع: الأحوال الاقتصادية

تنقسم الحياة الاقتصادية – عادة – إلى زراعة، وصناعة، وتجارة والعملة المستخدمة فى التبادل الاقتصادى، وأنبه إلى أننى لم أعثر على معلومات تفيد البحث عن تطور الصناعة فى هذه المنطقة قبيل الفتح الإسلامى، لذا فسوف أعرض عن ذكرها.

أولا: الزراعة:

عُرِفتَ بلاد ما وراء النهر بالخصب، وعلى الرغم من وجود الجبال والصحارى التى تحيط بها، إلا إن نهر الصغد (جيحون) كان العامل الأساسى وراء خصوبة أراضيها. وقد أفرد النرشخى فصلا فى كتابه «تاريخ بخارى» لأنهار المدينة، وذكر من هذه الأنهار، نهر يسمى «شابوركام». قيل فى سبب تسميته بذلك، أن أحد أبناء كسرى من آل ساسان – لم تذكر الراوية اسمه – غضب من أبيه، وجاء إلى هذه الولاية. فأكرمه حاكمها، وأعطاه المكان ليعمره، فحفر شابور نهرًا عظيمًا، وسماه الناس باسمه. وأقام على ذلك النهر رساتيق، وبنى قصرًا له. وبقيت هذه الرساتيق من بعده ميراثًا لأولاده حتى جاء قتيبة بن مسلم فرد عليهم هذه الرساتيق من أسرة «بخاراخداه» التى اغتصبتها منهم، ويختتم النرشخى كلامه بعد أن ذكر اثنى عشر نهرًا فى بخارى بقوله: «ولكل نهر ذكرناه رساتيق كثيرة، وماء غزير، ويروى أن كل هذه الأنهار حفرها الناس ماعدا نهر (عاوختفر) فإنه نهر طبيعى حفره ماؤه دون جهد من الأهالى»[٢٧٥].

(٢٧٥) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٥٤– ٥٥.

ويذكر الإصطخرى وابن حوقل الأنهار التى تتفرع من نهرى جيحون وسيحون[٢٧٦]. مما أدى إلى خصوبة التربة وتقدم الزراعة فى هذه المنطقة.

وإذا سألنا عن أى عناصر السكان كانت تعمل فى الزراعة؟ فإن المستشرق جب، يجيب «بأنه الجنس الإيرانى»[٢٧٧]. أما باقى الأجناس فكانت تعمل فى حرف أخرى.

أما عن الحاصلات الزراعية فى بلاد ما وراء النهر فهى كثيرة ومتنوعة منذ قديم الزمان وظلت وتطورت بعد الفتح الإسلامى، ومنها: القطن، والفواكه بجميع أنواعها ومنها: العنب، والتفاح، والتين، والبطيخ. ومن البقول: اللفت، والكرنب. ومن الرياحين: الورد، والبنفسج والزعفران[٢٧٨]. كذلك اهتموا بالبساتين اهتمامًا كبيرًا، فقد ذكر النرشخى عن (آل كثكثة) – سبقت الإشارة إليهم – «إنهم أقاموا القصور، وكانت على أبوابها البساتين الجميلة الناضرة. وكانت ضياعهم عزيزة للغاية»[٢٧٩].

والجدير بالذكر، أن بلاد ما وراء النهر قد عرفت الأعياد المرتبطة بالزراعة. ومنها: عيد السمسم، ويسمى (هرو داذ). حيث كان يزرع السمسم فى هذا الوقت من كل عام، فصار عيدًا لهم. ومنها: عيد الحنطة، وهو اليوم الخامس عشر من جيرى – أحد شهورهم – وكان يأتى فى فصل الخريف. وأخيرًا، عيد النيروز ويسمونه «نوروز الفلاحين»[٢٨٠].

(٢٧٦) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص١٦٦، ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٩٣.
(277) Gibb: The Arab Conquestes.p.5
(٢٧٨) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٣٢.
(٢٧٩) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٥٢.
(٢٨٠) النرشخى: نفس المصدر، ص٣٦، وهذا العيد يعرف حاليًا «بعيد الفلاح» وهو بخلاف عيد النيروز الخاص بالمجوس كما نبه النرشخى والقلقشندى على ذلك فى كتابه،=

وكان يأتى فى آخر شهور السنة، فى اليوم الحادى والعشرين[٢٨١] وكان الفلاحون يحافظون على هذا العيد ويعتمدون عليه.

ثانيًا: التجارة:

أخذت التجارة نصيبًا كبيرًا من عناية الأهالى، نظرا لموقع بلاد ما وراء النهر على طرق التجارة الدولية. لذا فقد أوردت لنا مصادرنا الإسلامية الكثير عن التجارة الداخلية، على حين اهتمت المراجع الأجنبية بالتجارة الخارجية. وفيما يلى التفصيل:

(أ) التجارة الداخلية:

كان مركز هذه التجارة **الأسواق**. ومنها: **سوق الطواويس**، وهو سوق يعقد من قديم الزمان، ومن تقاليده أن تباع به سنويًا لمدة عشرة أيام فى فصل الخريف بقايا السلع المعيبة. ولم يكن فى الإمكان ردها ثانية، وكان يزدحم الناس فى هذا السوق، حيث كان يحضره أكثر من عشرة آلاف تاجر. **ومنها سوق شرغ**: وهو سوق قديم كان التجار يأتون كل سنة من الولايات البعيدة لحضوره، وكان يعقد لمدة عشرة أيام فى فصل الشتاء، وكانت معظم السلع فى هذا السوق من الحلوى والسمك الملح والطازج، والفراء... إلخ. وكانت التجارة به رائجة. **ومنها سوق ورخشة**: كان يعقد كل خمسة عشر يومًا. وحين يأتى هذا السوق آخر العام يجعلونه عشرين يومًا[٢٨٢]. **ومنها سوق «ماخ روز»**، وهو ينسب

= صبح الأعشى، جـ٢، ص٣٨٠، وعن عيد النيروز انظر، بطليموس الحكيم: ما جاء فى النيروز وأحكامه، ص٤٧- ٤٨، وابن سينا: الرسالة النيروزية، نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، جـ٢، ص٣٠.

(٢٨١) البيرونى: الآثار الباقية، ص٢٠٥.

(٢٨٢) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٢٨، ٣٠، ٣٦، ٤٠. البيرونى: الآثار الباقية، ص٢٠٤- ٢٠٥.

إلى ملك من ملوك بخارى اسمه «ماخ»، هو الذى أمر بإقامته، وكان يأمر النجارين، والنقاشين بنحت الأصنام من العام إلى العام، حيث كانت تباع فى هذا السوق، وقد وصلت جملة ما يباع منها ما قيمته خمسين ألف درهم فى اليوم الواحد[٢٨٣]. وكانت هناك بعض الأسواق الأخرى يقول عنها البيرونى: «ولهم قيام أسواق فى القرى فى الأيام التى أساميها فى كل شهر واحدة، تستعمل فى رساتيق بخارى والصغد»[٢٨٤].

ولا يخفى علينا أهمية **الطرق البرية** التى يسرت على التجار طريق الوصول إلى المدن والقرى ذات الأسواق. ولا يخفى علينا كذلك أهمية هذه الأسواق من الناحية الاجتماعية، فقد ساهمت فى اندماج أهالى القرى، الأمر الذى كان من شأنه أن يربط بين سكان بلاد ما وراء النهر، بحيث صار يعول على التجارة أملا فى الوصول إلى الوحدة بين سائر سكان المنطقة[٢٨٥].

(ب) التجارة الخارجية:

تمتعت بلاد ما وراء النهر بموقع جغرافى ممتاز، ساعد على تقدم وازدهار التجارة الخارجية بها. خاصة بعد ظهور تجارة الحرير وهذا يحتاج إلى وقفة سريعة ألقى الضوء فيها على هذه التجارة المهمة.

من قديم الزمان كانت صناعة الحرير مزدهرة فى بلاد الصين، وكان سر هذه الصناعة مكتومًا بحرص شديد، وكانت بلاد الصغد – بخارى وسمرقند – همزة الوصل بين إمبراطورية الصين، والإمبراطورية البيزنطية[٢٨٦]. وكان يطلق على الحرير اسم سيرس Series، ومن ثم أطلق على سكان الصغد الذين كانوا يحملونه إلى الغرب اسم سيرس.

(٢٨٣) مجهول: حدود العالم، ص٨٤، السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص١٥٩.

(٢٨٤) البيرونى: المصدر السابق، ص٤٠.

(٢٨٥) د. محمد أحمد محمد: بخارى فى صدر الإسلام، ص١١.

(٢٨٦) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، جـ٢، ص٢٨٥، سانت موسى: ميلاد العصور الوسطى، ص١٦٠.

أثر ظهور الترك على تجارة الحرير:

سبقت الإشارة فى المبحث السابق إلى أن ظهور الترك فى المنطقة كان له أثر كبير على الناحية السياسية والاقتصادية، وقد أشرت إلى أثرها على الناحية السياسية، فما هو إذًا أثرها على الناحية الاقتصادية؟

يصف المؤرخ الاقتصادى هايد، قيام الإمبراطورية التركية بأنه كان «بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس»[٢٨٧] وذلك بحكم موقع الأتراك الجغرافى المهم، والذى ساعدها على أن تتحكم فى طرق التجارة الدولية التى تربط بين الشرق والغرب، وهذه الطرق باختصار هى[٢٨٨]:

١- طريق الشمال:

يبدأ من الحدود الصينية، ويمر بصحراء جوبى ويصل إلى نهر سيحون، ومنها إلى الإمبراطورية البيزنطية، وهذا الطريق أقل الطرق خصوبة، وأكثرها وعورة.

٢- الطريق الأوسط[٢٨٩]:

يمتد من حدود الصين، ثم يمر بجبال تيان شان ثم يصل إلى مدينة كاشغر، ومنها يتجه إلى إقليمى فرغانة، وأشروسنة، مارًا بأسواق بلاد الصغد - بخارى وسمرقند - ومن هناك ينحرف صوب الجنوب الغربى حتى يصل إلى بلاد فارس. وكان هذا الطريق أكثر الطرق ثراء وخصوبة واستخدامًا.

---

(٢٨٧) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ١، ص٢٦.

(٢٨٨) ديفيد براونستون: طريق الحرير، ص٢٣ وما بعدها. هايد: المرجع السابق، جـ١، ص٢٧.

(٢٨٩) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص١٥٨.

٣- الطريق الجنوبى:

ويبدأ من الصحراء الشاسعة على الحدود الصينية، حتى مدينة يوغنك[٢٩٠]، ثم يجتاز هضبة البامير، ثم إقليم بذخشان وطخارستان، ثم يصل أخيرًا إلى الهند[٢٩١].

يتضح لنا من هذه الطرق الثلاث، أن التجارة التى تريد الوصول إلى الغرب، كان لابد لها من المرور على الإمبراطورية التركية، المشهورين بمهارة التجار[٢٩٢]، وكان من الطبيعى أن تقف الإمبراطورية الفارسية (الساسانيين) من الأتراك موقف العداء، إذ كان فى مقدور جيش تركى أن يتوغل فى إقليم فارس بحجة حماية القوافل الصغدية لذلك فقد منع ملك فارس دخول الحرير إلى بلاده مطلقًا[٢٩٣]، بل قام بحرق الحرير أمام أنظار المبعوث التركى بعد أن دفع له ثمنه.

وهكذا بات الموقف عصيبًا، فرأى أهل الصغد ضرورة البحث عن أسواق جديدة لتصريف تجارتهم. فكان عليهم التوجه إلى الإمبراطورية البيزنطية، فهم أكثر الأمم استهلاكًا للحرير والتوابل. ونجحت السفارة التى أرسلت إلى الإمبراطور جستنيان[٢٩٤] الذى أحسن استقبالها وأرسل مبعوثًا من قبله إلى الإمبراطورية التركية. وبالفعل؛ راجت التجارة بين الجانبين. وبمرور الوقت ارتفع عدد الأتراك (من أهل الصغد) فى القسطنطينية، بحجة مزاولة التجارة، إلى بضع مئات فى زمن وجيز.

---

(٢٩٠) يوغنك: من قرى سمرقند: السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٧١، ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٥١٣.

(٢٩١) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٣٣٢.

(٢٩٢) شاخت: تراث الإسلام، جـ١، ص١٧٦.

(٢٩٣) هايد: تاريخ التجارة، جـ١، ص٢٨، براونستون: طريق الحرير، ص٢١٥.

(٢٩٤) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، جـ٢، ص٢٨٦.

أثر سقوط الإمبراطورية التركية على تجارة الحرير:

لم تستمر العلاقات بين الجانبين – الأتراك والبيزنطيين – طويلاً، إذ أنه فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى – كما سبقت الإشارة – انهارت الإمبراطورية التركية أمام هجمات الصينيين، وابتهجت القبائل التى كانت تمارس التجارة فى إقليم الصغد لهذا التغير، إذ أصبح فى مقدورها أن تصل إلى الصين دون أن تصادف أية عوائق[٢٩٥].

وعادت قوافل الساسانيين والبيزنطيين تجوب الطرق للحصول على الحرير الخام من الصين بأقل الأسعار. وإذا كانت التجارة الداخلية قد ربطت بين سكان بلاد ما وراء النهر، فإن التجارة الخارجية قد ربطت بين بلاد ما وراء النهر والعالم الخارجى، يقول المستشرق جب: «وكان أقوى ما يصل بين الولايات من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصينيين، وأهم مراكزها سمرقند، وبيكند، وكش. وكانت سمرقند أوفرها حظًا من النجاح فى عالم التجارة، ومنها كانت ترسل البعوث التجارية الكثيرة إلى بلاط ملك الصين»[٢٩٦].

هذا، ولم تقتصر التجارة الخارجية لبلاد ما وراء النهر على الحرير فقط، بل شملت بعض السلع الأخرى نكتفى بالإشارة إليها. ومنها: القصدير، والحديد، والأحجار الكريمة، من أمثلة: أحجار اليشب والفضة، والماس، والجواهر، والمنسوجات الصوفية، والعقاقير والتوابل، والعطور، وبعض الأدوات المنزلية، وغيرها[٢٩٧].

---

(٢٩٥) هايد: المرجع السابق، نفس الجزء، ص٣٠، براونستون: المرجع السابق، ص٢١٧.

(296)Gibb: The Arab Conquests -.P 5-6.

(٢٩٧) براونستون: المرجع السابق، ص٧٨، ٨٥، ٦٧، ١٠٣، ١٠٤.

أما عن وسائل النقل المستخدمة فى نقل السلع على الطريق البرية، فمنها: الخيل، والبغال، والحمير، والجمال[٢٩٨]. وكانت هذه الحيوانات تسير فى نظام القوافل. وكان التجار يتبعون طرقًا رئيسة، وضعت عليها العلامات الإرشادية لمساعدتهم على مواصلة السير.

ثالثا: العملة [السَّكة]:

كانت العملة المتداولة فى بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام، من الفضة (الدراهم). ووفقًا لقول النرشخى، فإن الملك (بخارًا خداه) هو أول من سك عملة من الفضة الخالصة[٢٩٩] فى هذه البلاد ثم بدأ تداول هذه النقود بين الناس.

وقد ذكر المستشرق الروسى بارتولد، أن علماء النميات [المسكوكات] قد عثروا على كثير من النقود المتداولة فى آسيا الوسطى قبيل الفتح الإسلامى، فى مدن سمرقند، وخجنده، وخيوه. والعلماء يقسمون هذه النقود إلى قسمين، هما:

(أ) النقود الخوارزمية:

وكانت تحمل على وجهها صورة لرأس ملك وصدره، ونقش على ظهرها مذبح به النار المقدسة. وعليها كتابة رأى المستشرق (ماركوف): أنها تعنى الحاكم المطلق، بينما قرأها المستشرق (دونر): الملك العادل[٣٠٠].

(٢٩٨) الجاحظ: الحيوان، جـ١، ص ١٣٩، ١٤٢، ٢١٣، ٢٧٦، جـ٤، ص٢٧٥. وبراونستون: المرجع السابق، ص٢٦، ٦٢، ٧٣ وما بعدها.

(٢٩٩) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٢١– ٦١.

(٣٠٠) بارتولد: تركستان، ص٣٢٩.

(ب) النقود الصغدية:

فكانت من أنواع شتى، ولكنها تحمل صورة الملك الساسانى بهرام جور [٤٢٠– ٤٣٨م]. لذا فإن بارتولد يرجح أن ملك الصغد (بخارا خداه) قد اقتبس شكل العملة من جيرانه الساسانيين[٣٠١]. هذا، وقد ظلت هذه العملة مستعملة فى بلاد ما وراء النهر حتى القرن الثامن الميلادى.

❑❑❑

(٣٠١) بارتولد: نفس المرجع، ص٣٣٠.